البحر فى افواههم

كان عزت يقضى اجازة الصيف فى الاسكندرية مع اختـه فريده وزوجها محمود..وكالعادة فى كل صباح نزل هو ومحمود يبلبطان فى الماء حتى تنتهى فريده من اعداد الافطار على البلاج . وعزت لا يستطيع السباحة لكنه يجيد محاولة ذلك لمسافات قصيرة جدا وبطرق مختلفة ..على ظهره وبطنه وبرأسه تحت الماء وبرأسه ومرفوع فوقه .

اما محمود فهو لا يستطيع السباحة ولا يحاولها ولا حتى يعترف بها..فالبحر عنده هو التهلكة والسباحة فيه القاء بالنفس فى التهلكة ، ولانه يحب الحياه ويحرص على تجنب مخاطرها فهو لا يلقى بنفسه فيه ابدا ، انما هو دائما عند شواطئه واقفا على اطراف الماء او جالسا على الرمال مع الاطفال ..فاذا شجعه عزت على التقدم الى الداخل أو اثاره برش الماء على رأسه وصدره ، فهو يدخل قليلا وفى حذر..فاذا ارتفع مستوى الماء فوق ركبتيه فلا شئ فى الوجود يمكن ان يزحزح أقدامه خطوة واحدة الى الداخل ، بل انه ينتظر كل موجة ويتراجع امامها الى الخلف سعيدا بزيادة فرصه فى الامان..فاذا اوقعته موجة فزع وزحف للخارج باقصى سرعته ، ولا يعاود الكرة الا فى اليوم التالى وباصرار من عزت .

وفى هذا الصباح وقف عزت والماء يغمر نصفه ، واخذ يغرف الماء بكفيه وينثره على صدر محمود كعادته ، ومحمود الذى مازال الماء قصيرا تحت ركبتيه يضحك كالاطفال ويتقدم نحوه بحذر كعادته ايضا..وكلما تقدم خطوة تراجع عزت خطوتين حتى يجره معه للداخل .. والخطوات فى البحر غير الخطوات على الارض..فالارض واضحة مستقرة صلبة مستكينة من سار عليها فهو آمن ، اما البحر فجبار فى غموضه وغدره وتقلبه ، من آمن له فهو هالك ..وعزت الذى لا يجيد السباحة فيه مازال يتراجع حتى اصبح الماء فوق صدره وركبتى محمود ، ورغم أنه يعلم جيدا أن هذا هو الحد الأقصى المسموح به لارتفاع الماء على جسم محمود ، الا انه كعادته استمر فى تراجعه ونثر الماء فوقه محاولا سحبه للداخل .. خطوة أخرى ..خطوتين ..ثلاث..اختفى عزت . سقط فى حفرة داخل الماء لا يعرف اصلها او مكانها الا الله .

حين ادرك محمود أن ما يراه ليس احدى محاولات عزت للسباحة ، فزع وصاح بكل صوته وبصيغة الجمع كأنه هو الآخر يغرق..الحقونا..الحقونا..وانطلقت عدة صرخات من الأطفال والنساء حوله..غريق..غريق..وجاء بسرعة أكثر من رجل وشاب كانوا على مقربة منهم ، وحاول كل منهم ان يفعل شيئا لانقاذ الغريق لكن دون ان يتعرض هو للغرق..وظهر

عزت..شعره فقط وبعض رذاذ الماء يتطاير ضعيفا من حركة يديه تحت الماء . انـــه مـــازال حيا يقاوم الموت .

واستمرت المحاولات الحذره لنزعه من الحفره واعادة الرمل تحـــت اقدامـــه أو اعـــادة اقدامه فوق الرمل ..احدهم دفعه فى ظهره كالموجة عدة مرات لدفعه للامام ، وأكثـــر مـــن واحد تبادلوا الامساك بذراعه كالخطاف لرفعه لاعلى ، واكثر من واحد ايضا اكتفـــوا بـــدور المراقب واصدار التعليمات وهم فى مكانهم آمنين على الرمل..شدوه..زقوه..ارفعـــوه . أمـــا محمود.. ايـــن محمـــود ؟.. انـــه مـــازال يـــصرخ بكـــل صـــوته وانفاســـه فـــى الجهـــات الاربع..الحقونا..الحقونا..

الأعمار بيد الله كما يقولون ، ولان عمر عزت مازالت فيه بقيه فقـــد افلحـــت الجهـــود المبذولة لانقاذه رغم ضيق وقتها ومساحتها ، وخرج كالذبيحة أو الزكيبة معلقا من ذراعه فـــى خطافين ، ثم سقط من الخطافين على الرمل الذى عاد تحت اقدامه . وهرع اليه محمـــود دون حذر وهو يردد بصوت مشروخ ..الحمد لله..الحمد لله ، ثم لف ذراعه حول كتفيه ليـــسير بـــه للخارج .

لكن عزت وقف مكانه واخفى وجهه بكفيه ، واعتقد محمود أنه يبكى ، والبكـــاء حالـــة طبيعية وضرورية لابد أن تحترم فى مثل هذه المواقف ، لذلك سحب ذراعه من حوله ووقـــف بجانبه يربت على ظهره فى حنان وصمت .

هل عزت يبكى فعلا ؟..ابدا..بعد لحظات رفع وجهه من بين كفيه..هادئا صافيا باســـما خاليا من اى تعبير يدل على انه كان فى محنة حقيقية يصارع فيها الموت وحده..لا دمـــوع أو فزع أو ذهول أو حتى رعشة ما بعد النجاه ..لا حزن على غرقه أو سعادة بنجاتـــه..لا شـــئ على الاطلاق غير عادى..كأن شيئا لم يحدث ، أو أن الذى حدث كان تمثيلا فلم يكن فى بحر حقيقى ولم يكن جاهلا بالسباحه ولم يسقط فجأة فى حفره ، ولم يبتلعه الماء ولم يبتلع هو المـــاء ولم يصبح البحر بحرين حوله وداخله ولم يصبح هو غريق الاثنين..كأنه ممثل قام بدورغريق ، فلا هو رأى الموت فى البحر ولا الذين حوله رأوه فى وجهه بعد ذلك .. أو كأنـــه لـــم يقـــم بالدور اصلا لكن دوبليرا هو الذى فعل ذلك ، وبالتالى هو لم يغرق ولم ينجو ولم يعرف كيف يعبر عما حدث لغيره .

أخذ محمود يتأمله بذهول ودهشة..فاذا كان البكاء على ما حدث شيئا طبيعيـــا لابـــد ان يحترم ، فان عدم البكاء عليه والاستهانة به شئ غريب يثيرالذهول و الدهشة . ولـــم يتركـــه عزت لتامله انما قال له باسما :

_ جرى ايه يا ابو حميد ...مالك متيس كده ؟!

ثم ضحك فى صفاء ..صفاء حقيقى لا يكدره او يعكره شئ . وأمسكه محمود من ذراعه برفق وقال بصوت ضعيف وهو يشعر بالمغص يعضه فى كل جسمه ورأسه :

_ كفايه ياعزت ..ياللا بينا نرجع و..

_ ياراجل لسه بدرى ..تعالى..نعالى..

ثم سحب ذراعه من يده وسار وحده فى الماء دون ان ينتظر الجواب

مسكين محمود..مفزوع مصدوم مذهول معضوض فى كل كيانه..كأنه هو الذى سقط فى الحفرة وغرق ثم خرج منها كالزكيبة معلقا فى خطافين . وسار بجانبه على اطراف الماء يحمل عنه كل آثار المحنة . عدة امتار وعاد عزت الى طبيعته فى البحر..يحاول السباحة على وجهه وظهره وبرأسه تحت الماء وبرأسه مرفوع فوقه ، وبين الحين والآخر يقف يغرف الماء بكفيه وينثره على صدر ورأس محمود . انه يصر على ان شيئا غريبا مخيفا لم يحدث ، والأعجب من الاصرار الصدق الشديد فى التعبير عنه . انه يكاد ان يقنعه هو الذى رآه يغرق بالفعل ان ما حدث كان تمثيلا ، وأن ما يراه الآن هو الحقيقة !

ولم يستطع محمود أن يتماسك اكثر من ذلك ، فجر نفسه للخارج وجلس على الرمل يرتجف . وجاءه عزت بعد قليل وهو يضحك منه كعادته ، وجلس بجانبه وقال وهو يربت على ظهره كأنه هو الذى غرق :

_ اجمد يقى لحسن فريده تاخد بالها .. اوعى تقول لها حاجه لحسن تحلف ما نبات فى اسكندريه .

هز محمود رأسه بالموافقه دون أن يتكلم ، لكنه كالعادة لا يستطيع أن يخفى شيئا عن فريده ، خاصة ذلك الشئ الفريد المروع الذى رآه اليوم . وقص عليها ما حدث بالتفصيل وهو يكاد يبكى من مجرد تصوره .. فخبطت صدرها بكفها السمين والسندويتش الأسير فيه ، وشهقت وزفرت صيحه مفزوعه بصوتها ونظراتها وكل ملامحها ..ياخرابى..يامصيبتى..لازم نرجع مصر النهارده .

لكن قبل الرجوع لمصر اى للقاهره ، لفت وطافت على كل الاصدقاء والجيران تخبرهم بما حدث لاخيها ..فهى مثل زوجها لا تستطيع ان تبتلع شئيا رأته أو سمعته . وبعد ساعة واحدة كان الجميع قد ترك البحر والبر وذهب الى عزت فى البيت ، الكل يقدم له التعازى لغرقه والتهانى لنجاته .. التعازى والتهانى معا..فعمر الانسان هو أغلى شئ فى الوجود ، لذلك فما يحدث له لا يؤخذ جملة واحدة ، انما لابد من التفاصيل حتى يحظى فى كل تفصيلة

بما يستحقه من المشاعر والنظرات والكلمات وكل ردود الفعل اللائقة باغلى ما يملكه الانسان..فمع حمدا لله على السلامه والف مبروك على نجاتك وقدر ولطف ، كان هناك أيضا المؤمن منصاب ومقدر ومكتوب وشد حيلك ولا حول ولا قوة الا بالله ! .

فعلا لا حول ولا قوة الا بالله..فعزت الذى بدأ معهم صافيا باسما كما كان مع محمود ، ارتجف وتالم وتعذب وبكى بكل كيانه بعد ان انتهى منهم .

ما الذى حدث ؟..الذى حدث أن ما فعلوه وقالوه نبهه الى انه لم يفعل ما كان يجب أن يفعله مع نفسه ، فهو لم يفزع لغرقه ولم يسعد بنجاته..أى أن عمره بالنسبة له ليس له قيمه..فلا هو خسارة تستحق العزاء اذا ذهب ولا هو نعمة تستحق التهنئة اذا عاد .

هو يتذكر جيدا ما حدث له..كان يتراجع بظهره للخلف وهو يرش محمود بالماء ، وفجاة لم يجد الرمل تحت اقدامه ولم يجد محمود او اى شئ آخر امامه ، وأصبح معلقا فى الماء بين الماء والماء..وجاءته العواصف واقتحمته من كل فتحات وجهه..من فمه وأنفه واذنيه ، ومع ذلك سمع بوضوح صراخ محمود وصياح الفتيات والاطفال وتعليمات الذين ظلوا بعيدا فى أماكنهم..وقبل أن يأتيه المدد من الرجال لانقاذه ظل فترة وحيدا ، وخلال هذه الفترة التى كان يخوض فيها تجربة حقيقية للموت ، لم يبذل أية محاولة للنجاه..استسلم للموت بارادته وبوعى كامل كأنه كان ينتظره ، والأهم من ذلك أن الموت نفسه لم يكن يشغله ، انما الذى شغله هو تجربة الموت ذاتها..كيف يموت الانسان غرقا ؟ .

هو ليس شاذا أو مجنونا ، انما كل ما هنالك انه منذ فترة وقع فريسة أحداث قاسية وعنيفة أرغمته على التفكير فى الانتحار كحل أخير ووحيد لمتاعبه ، ولانه أضعف أو أجبن من أن يتحمل أى ألم فى سبيل ذلك ، فقد فكر وبحث فى كل الوسائل المؤديه للموت فوجد أن الغرق أفضلها..فهو مجرد دقائق فى أحضان الماء ينتهى الانسان بعدها دون ألم أو جروح أو كسورأو تشوهات..مهما كانت قسوة هذه الدقائق فهى مجرد دقائق والموت آت بعدها لا محالة .

ذهب للنيل من أكثر من جهة ، ووقف يتأمل مياهه ويحدد أفضل مواقعه للغرق..فهو لا يريد موقعا فيه فرصة لانقاذه ، انما موقعا الموت هو كل فرصه . ووجد أكثر من موقع ، وارتاح الى ان هناك حلا لمشاكله يغرق بها فيه عندما تستحيل كل حلول الدنيا..عندما يقولها لآخر مره ..لا فائدة . لذلك ، وعندما كان يغرق فعلا ، فان كل ما شغله هو مطابقة الواقع بالخيال..واقع الغرق وما تخيله عنه..كأنه عالم يجرب اختراعا جديدا على نفسه ، فلا يهمه ما الذى يحدث له ، انما كل اهتمامه لملاحظة وتسجيل ذلك الذى يحدث .

لم يفكر فى الموت نفسه لان الموت بالنسبة له لم يعد مجرد فكرة تتسع للتفكير ، انما هو خلاص مأمول فكر فيه كثيرا حتى أصبح حقيقة يعيشها كحقيقة الحياة نفسها..ولانه لم

يفكر فى الموت وهو يموت ، فهو لم يفزع ولم يحاول مقاومته ببعض الحركات البسيطة التى يجيدها فى السباحة رغم جهله بها..استسلم له بارتياح وامتنان ، فالتجربة أثبتت أن الغرق فعلا أفضل مما تخيله..ليس سهلا مريحا للجسم فقط انما للنفس أيضا..فهو ليس مجرد دقائق قليلة فقط فى الماء لا تؤلم أو تجرح أو تكسر او تشوه ، انما ايضا مفاجأة سريعة لا تدع الفرصه للوقت كى يفرض نفسه حتى يتعذب الانسان بانتظار واستقبال الموت..كل شئ يحدث فجأة وينتهى بسرعة وفجأة ايضا .

انها راحة سهلة وأبدية لم يكن يحلم بها..راحة هى التى سعت اليه وجاءته ولم يتكلف هو مشقة الذهاب اليها ودفع ثمنها فى الآخرة..طبعا هو يفكر فى الآخره ، لكن ما حيلته وعذابه فى الدنيا فوق احتماله لدرجة انه يعتقد أن الله سوف يكتفى بذلك ولن يعذبه فى الآخرة مهما فعل حتى لو انتحر . المهم أنها راحة جاهزة وحاضرة وممكنة ، تهون وتهان بجانبها كل راحات الدنيا البعيدة الصعبة غير الممكنة .

هل كل ذلك التفكير والتأمل والمقارنة والسعادة بالنتيجة كثير على اللحظات التى قضاها وحده تحت وبين الماء ؟..لا..ليس كثيرا..فلحظات الموت لا تحسب بالساعة وليس لها زمن كلحظات الحياة..انها خارج الزمن وتستطيع احتواء كل الزمن دون زمن .

وعزت فى استسلامه وارتياحه وحساباته عن التجربه ، يسمع صراخ محمود كانه أصبح على حافة الحفرة..محمود الذى يفزع أن يرتفع الماء فوق ركبتيه ! .. ولا يدرى لماذا تذكر فجأة أخته الوحيدة فريدة والذى يمكن أن يحدث لها لو أنه غرق فعلا..انه يحب فريدة بكل الحب الذى يملكه..فهى ليست اخته فقط انما كل عائلته التى تحبه ويحبها ، وهو حقا رضى أن يموت ويتركها ، لكنه لا يرضى أن يموت الآن وهو مقيم معها وزوجها معه فى البحر..انه لن يحزنها فقط على موته ، انما ربما يخرب بيتها ايضا هى وأولادها لانها ستكره زوجها الذى كان معه ولم ينقذه رغم أنها تعلم أنه لا يستطيع ذلك..انه يعرف فريدة وجنون مشاعرها وأفكارها وردود أفعالها عندما يتعلق الأمر به .

عندئذ قام باحدى محاولاته التى يجيدها للسباحه ، وأثمرت المحاولة قليلا وظهر شعره وبعض رذاذ الماء الذى ارتفع قصيرا هزيلا يدل على حركة يديه لا على حركة الماء..وجاءه المدد من الرجال ، وشعر بان المحاولات حذرة ومتباعدة وأن الموت مازال أقرب اليه من الحياه..هل يقوم بمحاولة أخرى من أجل فريده ؟..لا..لا ، لا يستطيع مقاومة الموت مرتين

..لقد اعطى فريده حقها ، وعليه الآن أن يعطى نفسه حقها ايضا . واستسلم للموت مرة اخرى ، لكنه فى النهاية خرج حيا رغم استسلامه وحذرهم..أعمار ولكل اجل كتاب .

وعندما جاءه محمود مهرولا عرف الدموع فى وجهه رغم مياه البحر التـــى تغـسله ، وشعر ببعض الراحه أنه أسعد بنجاته محمود الطيب الكريم . أما راحته الكبرى فلأن التجربة اثبتت له حسن ظنه فى الموت غرقا..من السهل أن يموت عندما يريد ولن يكون ذلك مروعـــا او حتى مؤلما .

الموقف اذن ليس صعبا عليه رغم هوله بالنسبة للآخرين ، وعندما وضع رأســه بـين يديه لم يكن يبكى كما اعتقد محمود ، انما كان يخفى وجهه خجلا أو هربا من نظرات لا يريد الاصطدام بها..نظرات الذين رأوا خيبته وعرفوا غشمه فى السباحه ، لذلك عندما ابتعــدوا أو عادوا للهوهم ورفع هو وجهه من بين كفيه وابتسم فى صفاء ، كان صافيا حقا كأن شــيئا لــم يحدث حقا .

وعاد دون خوف أو حذر يدهس البحر ويلقى بنفسه فيه . ورغم كــل رعــب محمــود وفزع فريده بعد ذلك فقد ظل صافيا مبتسما..حتى جاءه الناس فكانت نظراتهم وكلماتهم هــى الغرق الحقيقى له..هى الرمل الذى انسحب فجأة من تحت أقدامــه وعواصــف المــاء التــى اقتحمته وعلقته مصلوبا بين الماء والماء . ان كل كلمة عزاء أو تهنئة قالوها له ولم يقلها هــو لنفسه طعنت مشاعره بقسوة ، وفجرت الدماء والدموع غزيرة فى قلبه حزنا على أنه لم يكــن لنفسه..على هوان نفسه على نفسه..على اهانة نفسه لنفسه..فهو لم يقدم لها العــزاء الواجــب حين غرقت ، ولم يستقبلها بالتهنئة الواجبة عندما نجت..كأنهــا ليــست منــه وكأنــه لــيس منها..كأنهما غريبان وما بينهما فراغ ، فلا حزن عليها ان ذهبت ولا سعادة بها ان عادت .

ان نظراتهم وكلماتهم نبهته الى الفريضة الحاضرة فى قلوب وعقول كل الناس ، الغائبة فى قلبه وعقله وحده..حب الانسان لنفسه..ان للجميع نفوسا تعز عليهم ويدينون لهــا بالحــب والولاء ، أما هو فوحده نفسه كسيرة ذليلة تشحذ منه الحب فلا تجده ، وترجو الولاء فلا تجــد سوى الجحود والنكران . ما أقسى أن يكره الانسان نفسه ، وما أفظع أن يكتــشف ذلــك فــى عيون وأفواه الآخرين .

ليتهم لم يأتوه ولم يعزوه ولم يهنئوه ولم ينبهوه لهوان نفسه على نفسه..لقد كــانو عليــه أقسى من غدر البحر ووحشيه ووحشته وظلمته..من موجه وقوتــه وجبروتــه..مــن ملحــه وكثرته وقسوته ، ورمله وخبثه وخسته وهو ينسحب فجأة من تحــت أقدامــه..أقــسى مــن صرخات محمود وصيحات الصغار ومحاولات الكبار اليائسة لانقاذه..أقسى من الموت نفــسه ومواجهته والاستسلام له ثم الخروج حيا منه وبه .

انه لم يغرق حين غرق ، انما هو غرق الآن فقط فى نظراتهم وكلمـــاتهم..غـــرق حقـــا وبنفسه دون تمثيل أو دوبلير أو احساس بأن الموت راحة تأتى بعد دقائق معدودة دون ألـــم أو كسور أو جروح او تشهوات..غرق باحساس كل غريـــق لا يـــشغله ســـوى المـــوت وهـــو يموت..فليتألم ويبكى ويصرخ كما يفعل كل غريق بنفسه على نفسه حين غرقه وبعد نجاتـــه ، وليغفر الله للذين لم يكفهم عذابه بحياته فأضافوا اليه عذابه بموته

....

عزيزه عزيز